تاريخ الاستلام: 2020/09/11 تاريخ القبول: 2020/11/30 تاريخ النشر: 2020/12/30

أ. إسماعيل خنطوط [1]*
جامعــة باجي مختار –عنــابة (الجزائر)
khentout@outlook.com
د.سفيــان بوعنينبــة [2]
جامعة 20 أوت 1955–سكيكدة (الجزائر)
Chehd07032011@gmail.com

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 14/ العـدد 02 –السنة 2020 ص ص 159–196
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8152

الملخص

يسعى هذا المقال إلى التعريف بالزوايا، مبينا أهم الوظائف التي اضطلعت بها قديما، ولا زالت تقوم ببعضها إلى الآن، مع تتبع المسار التاريخي لمعرفة التطورات الحاصلة في كل مرحلة، بداية من مرحلة الولادة والمخاض، مرورا بمرحلة الازدهار والانتشار وصولا إلى مرحلة التقهقر والتراجع. وقد خلص البحث إلى أن الزوايا مؤسسة نابعة من المجتمع، تزدهر بازدهاره وتتراجع بتراجعه، تحمل في كثير من الأحيان آلامه وآماله، خاصة إذا كانت الوظيفة التعليمية غايتها، وقد تكون عامل إلهاء وتخدير، إذا فارق العلم ساحتها.

الكلمات المفتاحية: *الوظيفة التعليمية، الوظيفة السياسية، المقاومة الثقافية، التشريع الإسلامي، النظام القرابي.*

Abstract

This article seeks to identify Zaouias, indicating the most important functions that have been carried out in the past, and still do some of them until now, while tracing the historical path to know the developments in each stage, beginning from birth and labor, through the boom and spread to the stage of regression and decline. The research concluded that Zaouias are a society-based institution that flourishes with its flourishment and retreat with its retreat, often carrying its pains and hopes, especially if the educational function is its purpose, and may be a distraction and anesthesia, if knowledge is missed.

Keywords: *teaching function, political function, cultural resistance, Islamic legislation, the relative system.*

* المؤلف المرسل

المقدمة:

ترتبط نشأة الزوايا في العالم الإسلامي عموما والمغرب العربي خصوصا، بمرحلة تاريخية اتسمت بالتراجع والتقهقر في مجالات الحياة المختلفة، ومنها الجانب المعرفي، الذي يعد المظهر الأبرز المعبر عن الحالة المرضية التي تعانيها الحضارة الإسلامية في شتى فروعها.

وقد عد مالك بن نبي هذه الحقبة – التي سماها عصر ما بعد الموحدين– بداية التقهقر في مسيرة الحضارة الإسلامية، حيث غلب التقليد على التجديد، وطبع الجانب المعرفي بطابع الشروح والحواشي، وغاب الإبداع والابتكار، مما أضفى عليها سمة التخلف والجمود، وأدرجها في مرحلة العد العكسي.

وبما أن الزوايا وليدة هذه المرحلة، فإنها تأثرت في شتى مجالاتها بالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية العامة، وأثرت فيها العوامل الموجهة للبنى الفكرية والنفسية السائدة وقتها، وقد تبوأت الزوايا مكانة هامة في تاريخ المغرب العربي عموما والجزائر خصوصا، باعتبار الدور الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي الذي اضطلعت به قديما، قبل وجود المؤسسات التعليمية والاجتماعية العصرية، مما جعلها ركيزة أساسية يساهم المجتمع في الحفاظ عليها ودعمها ماديا ومعنويا، وعلى الرغم من تراجع مكانتها حديثا وتقلص دورها مع ظهور البدائل، وانتقال مركز الثقل إلى المؤسسات الاجتماعية المختصة، فإن فاعليتها لازلت موجودة، وعطاؤها ما فتئ مستمرا، مما يؤهلها لأن تكون موضوعا للبحث والدراسة، بغية التعريف بها وتبيان وظائفها، وتتبع مسارها التاريخي، لمعرفة الظروف والعوامل المساعدة على ظهورها، وانتشارها أو انحسارها، وقد سعى البحث إلى الإجابة عن الإشكالية التالية: ما تاريخ الزوايا وما دورها في المجتمع؟

وللإجابة عن هذا السؤال تم تقسيم البحث إلى محورين:

المحور الأول: الزوايا مفهومها ووظائفها.

المحور الثاني: سياقها التاريخي.

2. الزوايا مفهومها ووظائفها:

2. 1 مفهومها:

– لغة:

يدل الأصل الثلاثي (ز و ي) على معان كثيرة تنحصر في معنيين متباعدين دلالة، متقاربين في الوظيفة الإجرائية لمصطلح زاوية:

– الانضمام والتجمع:

تقول زوَيت الشَّيءَ: أي جمعته وضممت أجزاءه إلى بعضها، قال ابن منظور:«انزوى القوم بعضهم إلى بعض تضاموا» (**ابن منظور، 1993، ص364**)، وقال ابن فارس: «الزاء والواو والياء أصل يدل على انضمام وتجمع» (**ابن فارس، 1979، ص34**)، وهذا المعنى أقرب إلى مصطلح الزاوية، الذي يدل مكان تجمع جماعة خاصة بمكان خاص، للذكر وقراءة القرآن وتعلم العلم.

– المباعدة والتنحي:

قال ابن منظور: «الزي مصدر زوى الشيء يزويه زيّا وزويّا فانزوى، نحاه فتنحى [...] وزَوَيْت الشيء عن فلان أي نحّيته» (**ابن منظور، 1993، ص363**)، والزاوية مكان تباعد وتنحى عن العمران والمدن– غالبا– ينزوي فيه شخص أو جماعة قصد الانقطاع لذكر الله وعبادته وطلب العلم.

– اصطلاحا:

ينتمي مصطلح الزاوية مع مصطلحات أخرى إلى حقل دلالي متكامل، وتشكل العلاقات الموجودة بين وحداته الاصطلاحية روابط أو أنساق دلالية، تساهم في إيضاح التشكل المفهومي لمصطلح الزوايا. فحينما ننظر نظرة غائية إلى مصطلحي التزكية والتربية المرتبطين في التراث الصوفي بمصطلحي العزلة والخلوة (**أحمد زروق، 2005، ص413**) ، نلحظ أن التربية أو التزكية غاية الخلوة والعزلة، وهذان الأخيران يحيلان بدورهما على مصطلح التصوف، الذي نشأ مصطلح الزاوية في كنف فلسفته الانعزالية. وقد عرفت الزاوية بتعريفات كثيرة أهمها:

– تعريف ابن مرزوق لها بأنها: «المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين» (**التلمساني، 1981، ص413**).

– يعرفها رابح تركي بأنها: «مدرسة دينية ودارا لضيافة الأغراب، وتعتبر مركزا لمشايخ الصوفية ومخصصة للعلم والثقافة العربية الإسلامية في مراحل الدراسة» (**تركي، 1981، ص237**).

– وعرفها أبو القاسم سعد الله بقوله: «الزاوية مؤسسة شاملة فهي مسجد للعبادة ومدرسة للتعليم وملجأ للهاربين ومأوى للغرباء ومركز للفقراء» (**سعد الله، 2011، ص171**).

يتضح مما سبق ما يلي:

– اتفقت التعريفات الثلاث على الدور الاجتماعي للزوايا المتمثل في الإيواء والإطعام، فابن مرزوق عرّفها بالنظر إلى الوظائف التي كانت تؤديها في عصره، فهي مقصد المسافرين والمحتاجين، والأمر نفسه عند رابح تركي فهي دار لضيافة الغرباء، أما أبو القاسم سعد الله فقد أبرز الوظيفة الاجتماعية للزوايا من خلال إيواء الغرباء

والفقراء، فهذه الوظيفة ملازمة للزوايا منذ نشأتها، وقد حافظت عليها رغم تقلبات الزمن، واحتلاك الظروف، ولازالت مستمرة إلى الآن، إذ تخصص الزوايا دارا للضيافة تأوي وتطعم الغرباء والمسافرين والفقراء.

– تظهر الوظيفة التعليمية والدينية للزوايا في التعريفين الثاني والثالث، وهما وظيفتان اضطلعت بهما الزوايا العلمية قديما وحديثا، والتعليم فيها ديني خالص، يقتصر على العلوم الشرعية– كالقرآن والفقه والتفسير– واللغوية، كالبلاغة والنحو والصرف والصوتيات، لكن هذه الوظيفة لم تكن موجودة في عهد ابن مرزوق، فالزوايا في عهده تقترب من زوايا الذكر والتصوف منها إلى زوايا العلم والمعرفة.

– تأخذ الزوايا طابع الهئية المنظمة للملتقيات والاجتماعات الخاصة بشيوخها ومريديها، كما تؤدي وظيفة سياسية بحكم ارتباطها بالمجتمع، وقد أشار أبو القاسم سعد الله إلى هذا، فهي ملاذ للهاربين من السلطة الحاكمة أو من غيرها.

– مما ينبغي التنبيه إليه أن التصوف وتقديم الخدمات الاجتماعية والتعبدية سمات مشتركة بين جميع أنواع الزوايا، العلمية وغير العلمية، بيد أن الأولى تتجه إلى تربية النشء وتقويمه وتثقيفه، والثانية تجعل من الذكر والمدائح والخرافات– عند بعضها– شعارا لها.

2. 2 وظائفها:

كثرت الوظائف التي قامت بها الزوايا، وتعددت أدوارها، بين الديني والتعليمي والسياسي والاجتماعي والثقافي، لكن أهم وظيفة ضمنت لها استمرارها وأمّنت لها بقاءها هي الوظيفة التعليمية. وقد تستمر بعض الزوايا ويلتف الناس حولها، وإن مارست نوعا من الدجل وبيع الوهم والخرافة؛ لأنها تحاول دائما أن تغطي وهمها ودجلها بالغطاء العلمي والديني ولو بشكل محتشم؛ بحيث تجلب بعض الطلبة —

للخدمة لا للعلم– وتقيم حلقا للقرآن والذكر للتمويه، أو ترتكز على الماضي العلمي والديني لشيخ أو أكثر من شيوخها، وقد نشأ هذا الدجل في كنف انتصار العقل العرفاني «الذي نقل خطاب اللاعقل إلى[...] حيز العامة، حيث التلقي والتسليم، دون مساءلة، وحيث مملكة الجمهور الأمي الواسع، بما أنتج من الربط والصوفية ونظام المشايخ والطرق، وهي الأطر الاجتماعية الثقافية السياسية التي تسري فيها ويتدفق من حولها اللامعقول بلباسه الديني، لتحويل العامة إلى قوة مادية تقف أمام كل محاولات النهضة العقلية أو الحركات الإصلاحية» (أحمد السيد، fac.ksu.edu.sa/snqahtani/publication/68525).

وسأحاول تتبع الوظائف والأدوار التي قامت بها الزوايا، دون مراعاة للتسلسل الزمني لهذه الوظائف والأدوار، مع عدم إغفال المشكلات والظروف التي أحاطت بالزوايا وعرقلت مسيرتها الحضارية في الماضي والحاضر.

2. 2. 1 الوظيفة السياسية:

يلاحظ الراصد للتاريخ الإسلامي تفاعلات اجتماعية واقتصادية وسياسية وأمنية، ساهمت في بلورة الفكرة السياسية لدى الزوايا، فالمجتمع المسلم عمل على إنتاج الروافد المغذية لدور الزوايا السياسي، وذلك بعد انتشار النزعة الانعزالية الصوفية في المجتمعات المسلمة، جراء الطغيان المادي البادي في قصور ودور الأغنياء والأمراء والسلاطين، ومن ثم جاءت العزلة الصوفية لتغذية الذات بمقومات تقف أمام عناصر الاستلاب الغازية للشخصية الإسلامية، ثم تطورت لتتخذ لها مراكز بعيدة تحميها من الانصهار والذوبان أمام نار المادة والشهوات المطلة من القصور.

وأثناء الهجمات الصليبية والمغولية على العالم الإسلامي، استعملت هذه المراكز وسيلة دفاعية لمواجهة الغزو الخارجي، وظهرت فاعليتها في المغرب الإسلامي بعد

سقوط الأندلس واشتداد الحملات الصليبية، بحيث أصبحت ثكنات للمجاهدين، وأضحى شيوخها ومرابطوها في طليعة الجند يحمسون الناس على قتال العدو.

وبعد دحر العدو واستتباب الأمن يجد الحاكم نفسه مجبرا على احترام شيوخ الزوايا والمرابطين الذين ساهموا في دفع الخطر وتجنيد الناس، فالبطولة والشجاعة والصلاح عوامل تثبت في ذهن العامة تقديس واحترام المتصف بها، فكيف إذا اجتمعت معها الخدمات الاجتماعية والعلمية التي تقدمها الزوايا؟.

وبهذا نرى أن الزوايا أخذت من الحاكم وظيفته السياسية، بقدر ما نابت عنه في خدمة الرعية، لأن السياسة ممارسة وسلوك، وليست تصورا ذهنيا لا يلامس الواقع، فمن خلال الممارسة الفعلية للقواعد المتحكمة في العملية السياسية، تتكون قناعة الناس في جدوى جهة سياسية أو عدمها.

لذا فإن العملية السياسية في الزوايا جاءت كردة فعل عن الخلل الحاصل في السلطة القائمة، إذ كلما كانت السلطة غير قادرة على تمثل مطالب الكتلة البشرية الموجودة، كانت عرضة للتفلّتات أو التحولات أو التقاعس الجماعي للشعب عن هذه السلطة، ويظهر هذا جليا في المكانة السياسية التي تبوأتها الزوايا أواخر العهد العثماني، نتيجة الضعف الحكومي في كثير من المجالات السياسية، والتي قامت الزوايا بسدّها (**الميلي، ص267**).

وبعد سقوط السلطة العثمانية في الجزائر إبان الغزو الفرنسي، قامت الزوايا مقام السلطة الذاهبة، واستمرت في قيادة الشعب لمدة تفوق النصف قرن؛ من بداية الاحتلال 1830 إلى نهاية المقاومة 1904 (**سعد الله، 2007، ص40– 57**).

2. 2. 2 الوظيفة الدينية والتعليمية:

تعد الزاوية في نشاطها الديني والتعليمي انعكاسا للبنى الثقافية والاجتماعية السائدة، والتي تحدد الأطر العامة المتحكمة في توجه الأفراد والجماعات والمؤسسات، فالشيخ أو الطالب في الزاوية، تتحكم – في نشاطهما التعليمي والتعلمي- صلات وترسبات اجتماعية خاصة تشكلت مع مرور الزمن، لا يتصور تعليم أو تعلم أو تدين- في الزاوية- بدونها.

إذا سقف المجتمع طموحاته وعطل روافده الفكرية، حكم على نفسه بالتوقف في الحقبة الزمنية التي اتخذها صنما يدور حولها لا يكاد يتجاوزها، وقد كانت الوظيفة الدينية والتعليمية للزوايا محاصرة بخنادق عميقة منعت الدارسين والعلماء من مجاوزة الرقعة الفكرية المسموح بها، ويمكن تجلية هذه الفكرة من خلال النقاط الآتية:

– غلق باب الاجتهاد:

الاجتهاد أصل من أصول التشريع الإسلامي، كما أنه «ضرورة من ضرورات الحياة، فلا تستقيم حياة مجتمع ينحو إلى الجمود» (**بن عثمان التويجري، 2007، ص07**)، فبعد مرحلة العطاء والإنتاج العلمي للمسلمين-قبل الغزو التتري- تم تمجيد الخمول، تحت شعار: ما ترك الأول للآخر شيئا، واكتفى المسلمون بتراث السابقين شرحا وتعليقا وتعقيبا، خوفا من التجديد ورضا بالموجود، فأضحت غاية العالِم أن يفهم ما قال الأول، مما فتح الباب أمام ممارسة القمع الفكري على المجتهدين، وتسليط العامة عليهم؛ بحجة مخالفة المألوف، وما فتئت يد الغلق أن أوقفت كل تجديد في مجالات النشاط العلمي في العالم الإسلامي.

وفي ظل الظروف العلمية السائدة لقرون، اقتنعت دور العلم بالموجود، وسارت على الدرب المرسوم، ومن ثم نجد الزوايا تسير في ركاب التقليد، إذ اكتفت بالمحتوى التعليمي والطرائق الموجودة، دون محاولة جادة لتغيير الأوضاع القائمة، بما يتماشى مع

مستجدات الزمن، فالنحو يدرّس على طريقة ابن مالك وابن آجروم والحريري وابن هشام، في جميع المستويات التعليمية، دون تفريق بين طالب مبتدئ وآخر متمرس، ودائما ما ينحو التعليم نحو الكم لا الكيف، وقيمة الطالب ترتفع بعدد المتون المحفوظة في التخصص الواحد، لا بالفهم الصحيح والأداء السليم للكفاءات التعليمية.

– تقديس التراث:

النظرة إلى التراث نظرة غير موضوعية، أنتجت اتجاهين متضادين، حالا دون الاستفادة منه الاستفادة المثلى، الاتجاه الأول أقنع نفسه بمقولة: نضج حتى احترق **(تمام حسان، 1994، ص07)**، فلم يحاول أصحابه تقويم الخلل وتدارك الخطأ، وذلك ما «يمثل تحديا حقيقيا لكل أمة من الأمم، حيث إن التراث قد يكون محفزا وملهما، وقد يكون مثبطا ومقعدا، بل إنه في حالات الركود يمثل مصدرا مستمرا للمشكلات والانتكاسات» **(بكار، 2005، ص28)**.

والاتجاه المضاد يهدف إلى الانسلاخ والطمس، ويسعى إلى إحداث قطيعة معرفية مع الروافد الحضارية والثقافية للأمة، مما يشكل تحديات خارجية تقابل بالرفض والاستهجان.

وقد عاشت الزوايا عصر الركود والانحطاط، وكانت نظرتها إلى التراث نظرة تقديسية، فليس في الإمكان أفضل مما كان، وأبلغ ما يصل إليه الدارس أن يستوعب شرحا لمتن، أو يشرح متنا، أو يضع حاشية لشرح، أما المراجعة الجادة الهادفة إلى «التوظيف والاستلهام والتجاوز والاعتبار والنقد» **(بكار، 2005، ص30)**، فليس من هدف الزاوية، فالهالة التبجيلية للتراث جعلت الزاوية تقف على أعتابه ولم تستطع الانتقال من نتاج السلف إلى مقتضيات العصر ومتطلباته.

– تقسيم العلم إلى ديني دنيوي:

لا يمكن الفصل بين الوظيفتين الدينية والتعليمية في الزوايا؛ لأن تعليم الزوايا ديني بامتياز، ففيها مسجد للعبادة، تقام فيه الصلوات والأذكار، وفيها مكان مخصص لتدريس العلوم الشرعية، أما العلوم الأخرى التي يطلق عليها علوم الآلة فهي وسلية لفهم النصوص الشرعية، يؤخذ منها بقدر ما يعين على الفهم. وهذا يخالف ما فهمه الأوائل من النصوص الشرعية التي تحثّ على طلب العلم، إذ لم تفرق بين العلوم، فالعلم «الذي أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء.. ويشمل الخلق هنا كل موجود في هذا الكون ذي حياة أو غير ذي حياة ..» (**عباس محمود العقاد، ص57**) ، ومن هنا قسم العلماء الأوائل العلوم من ناحية الحكم إلى فرائض عينية، وأخرى كفائية؛ الأولى تتعلق بسلوكات الفرد الشخصية، والثانية ترتبط بالمصلحة العامة للمجتمع، وكل فرض كفائي يصبح فرضا عينيا على كل من تخصص فيه أو انتدبته الجماعة إلى التخصص فيه.

بدأ هذا مع النهضة العلمية في العالم الإسلامي، بنزول قوله تعالى: (اقرأ) (سورة العلق، الآية01)، واستوت على سوقها في عصر المأمون الذي كان يرى أن الدين يشمل كل مجالات المعرفة، ومن ثم سعى إلى تهييء الجو العام لاستيعاب المعارف والعلوم اليونانية والفارسية والهندية والرومية، وبهذا صارت بغداد عاصمة العلوم في عصره، واشتهرت بمكتبة بيت الحكمة(**مايكل هاملتون مرجان، ص50**) «فالعلم في الإسلام يتناول كل موجود، وكل ما يوجد فمن الواجب أن يعلم، فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام، إذ كان خير عبادة الله أن يهتدي الإنسان إلى سر الله في خلقه وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله..» (**عباس محمود العقاد، ص58**).

غير أن النظرة القاصرة هي التي هيمنت على التوجه العام للمجتمعات المسلمة، وقسمت العلوم إلى دينية وأخرى دنيوية، وحصرت الدلالات العامة للنصوص المرغبة في طلب العلم على الجانب الشرعي، مما ضمن للتعليم الخاضع لهذه الرؤية موارد مالية ساهمت في إقصاء المفهوم العام للعلم في الإسلام، بل تناساها الناس مع مرور الزمن، وطمست جهود العلماء المسلمين في هذا المجال، وفي أحسن الأحوال يعدون همزة وصل حضاري بين حضارتين غربيتين.

2. 2. 3 الوظيفة الاجتماعية:

لم تكن الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها الزوايا قاصرة على جهة محددة، فالزاوية تقدم خدمتها حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهي مؤسسة اجتماعية خالصة، باعتبار أن المجتمع هو الذي ساهم في إيجادها واستمرارها، لذا كانت أيام الحرب تقود أتباعها للجهاد، وتنصر المجاهدين وتطعمهم، وتتحالف مع الأمراء المكافحين من أجل الدين وحماية البلاد (**سعد الله، 2011، ص267**).

ويشمل نشاط الزوايا الاجتماعي جوانب عديدة، كان المجتمع الجزائري في أمس الحاجة إليها، نجمل الكلام عنها في الآتي (**سعد الله، 2011، ص 270–334**):

– إيواء الطلبة والغرباء والفقراء، حيث فتحت ستة عشر زاوية – في قسنطينة وحدها – أبوابها لطلبة التعليم الثانوي الذين يدرسون خارج أسوارها، كما خصصت مكانا لمبيت الغرباء والفقراء.

– التكفل بفقراء وعجزة مهاجري الأندلس الهاربين من محاكم التفتيش الاسبانية، وبعد موت هؤلاء استمر العمل بهذا مع ذوي الأصول الأندلسية.

– التزمت الزوايا بنصوص أوقافها، فلا تصرف ما تجنيه من الأوقاف إلا وفق نص الواقف، فمن كان منها مخصصا للفقراء والمرضى والعجزة لا يصرف إلا عليهم،

كزاوية سيدي أبي عتيقة، وما خصص لفقراء العلماء محصور فيهم كزاوية سعيد قدورة.

– إصلاح ذات البين وفك الخصومات بين الأفراد والقبائل، والعمل على لمّ شمل الأسرة والمجتمع، فقد نابت الزوايا عن المحاكم في كثير من القضايا مما أسهم في الحد من الظلم والأحكام الجائرة التي قد تصدر عن بعض القضاة، فشيخ الزاوية يتقاضى إليه الناس عن طواعية دون سلطة تنفيذية مجبرة على تطبيق الأحكام إلا ضمير المتخاصمين وإيمانهما.

– الوقوف في وجه أدوات الاستعمار الثقافية، الممثلة في المبشرين الذين استغلوا حاجة الجزائريين لإبعادهم عن قضيتهم وتسخيرهم لخدمة فرنسا، إذ قامت الزوايا بأعمال بر وإحسان أغلقت «الأبواب في وجه المبشرين الذين يتربصون الفرص للوصول إلى أغراضهم باسم التعليم والتطبيب والإحسان»(**طيب جاب الله، 2013، ص144**).

2. 2. 4 الوظيفة الثقافية:

يعد الشق المعنوي من أهم عناصر الثقافة و«يشمل جميع المبادئ والمفاهيم الأخلاقية والعقائدية والذوقية والمعارف الفولكلورية واللغوية والأدبية والفنون المختلفة» (**يوسف زناتي، 2009، ص56**)، ومن هنا سعت الزوايا إلى المحافظة على الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري والممثلة في اللغة والدين والانتماء الحضاري، فالمجتمع الجزائري جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، والوسيلة المثلى لترسيخ الهوية الثقافية للمجتمع والمحافظة عليها، إدراج النظم أو البنى المكونة للثقافة في المناهج التعليمية، وقد جسّدت الزوايا ذلك من خلال التعليم المكثف للطلبة، إضافة إلى دروس الوعظ والإرشاد والتوجيه الديني لعامة الناس في المساجد، مما جعل الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري تقف في وجه الثقافة الوافدة المفروضة على المجتمع بالترغيب والترهيب. وأهم النظم الثقافية التي حافظت الزوايا عليها هي:

– النظام الغيبي الروحي:

الإيمان بالغيب من ضرورات الإيمان، فلا إيمان دون تصديق بالغيب، وقد نص القرآن الكريم على هذا في قوله تعالى: [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ] (البقرة، الآية03)، ويتضمن النظام الغيبي في الدين الإسلامي ماء وراء الحواس – ما وراء الطبيعة– وجاء الخبر الصريح والصحيح بنقله، فيدخل في ذلك الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله والملائكة واليوم الآخر والجنة النار، وبكل ما أخبر به القرآن وصحيح السنة النبوية من الغيبيات.

ومهما حاول الإنسان إنكار الجانب الغيبي، فإنه يقر بوجوده في جوانب كثيرة من حياته، لأن «النفس الإنسانية مغروس فيها الشعور بوجود الله... وهو شعور

فطري، فطر الله الناس عليه، وعبر عنه العلماء بالغريزة الدينية» (**السيد سابق، 1983، ص11**).

وهذه الغريزة الدينية التي اصطلح على تسميتها بالنظام الغيبي، هي المتحكمة في بقية الأنظمة الأخرى، فبموجبها يتم تنظيم مرتكزات الهوية الثقافية للمجتمع، فالنظام القرابي – مثلا – يتم تنظيمه وفق المنظور الإسلامي، الذي يستمد تعاليمه من النظام الغيبي (الوحي)، فالعلاقة بين الآباء والأبناء مبنية على الإحسان، وهي في فقه الأولويات بعد طاعة الله، وهذا مصداقا لقوله تعالى: [وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا] (سورة الإسراء، الآية 23).

وبما أن التعليم في الزوايا تعليم ديني خالص، فإن النظام الغيبي الروحي الممثل في الوحي بشقيه – القرآن والسنة الصحيحة– هو المصدر الأساس لبقية الأنظمة الأخرى، كالنظام القرابي والأخلاقي والتشريعي، أما النظام اللغوي العربي، فالزاوية تعده من الأنظمة الواجب تعلمها وتعليمها، امتثالا للقاعدة الأصولية: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا تُفهم نصوص الوحي دون معرفة معمقة بالنظام اللغوي العربي.

– النظام القرابي أو العائلي:

العلاقات الاجتماعية بين الناس ضرورية لقيام المجتمعات واستمرارها، وتشكل السلوكات الفردية روح المجتمع، لذا سعت المجتمعات منذ القدم إلى إيجاد أسس لتنظيم حياة الأفراد داخل العائلة «باعتبارها الخلية الأولى والأساسية في أي نظام قرابي، وهذا النظام يحتوي على قواعد وقوانين وتقاليد أساسية لتحديد حقوق وواجبات أفراد العائلة داخل النظام القرابي، وتنسيق علاقات أفراد العائلة» (**يوسف زناتي، 2009، ص57**).

ويختلف النظام القرابي من مجتمع لآخر، تبعا لاختلاف الروافد التي يستمد منها المجتمع أفكاره، ومن ثم يقع الاختلاف والتنوع بين الثقافات، والمجتمع المسلم ينظم العلاقات بين أفراده انطلاقا من الوحي الإلهي، فجميع الحقوق والواجبات المادية والمعنوية التي تخص أفراد الأسرة مصدرها الوحي، وهي ما يعرف في الفقه الإسلامي بفقه شئون الأسرة – الأحوال الشخصية– والزوايا ترمي في تدريسها إلى الحفاظ على نواة المجتمع، من خلال نشر الوعي بالحقوق والواجبات والضوابط الشرعية المنظمة للأسرة، مع الاهتمام بتقوية العلاقات الرابطة بين أفرادها، كطاعة الوالدين وبرهما والإحسان إليهما، والرأفة بالأبناء وحسن تربيتهم، والعشرة الحسنة بين الزوجين، وزيارة الأرحام.

- **النظام الأخلاقي:**

يقوم كل مذهب أخلاقي على قاعدة الالتزام، فهي نقطة الارتكاز التي عليها مدار الأمر، فلا أخلاق بلا التزام، وهذه القاعدة من أعظم القواعد عند علماء التربية والسلوك المسلمين، امتثالا للأمر الإلهي[فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ] (سورة هود، الآية 112).

وقد بين الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون مصدرين أساسيين للالتزام الأخلاقي هما (**مُحَمَّد عبد الله دراز، 1998، ص25**):

– قوة الضغط الاجتماعي: فالمجتمع يمارس ضغطه المادي والأدبي على أفراده ليلتزموا.

– قوة الجذب ذي الرحابة الإنسانية، المستمدة من العون الإلهي، وهذا ناشئ عن سمو في السلوك والوجدان.

لكن مُحَمَّد دراز خالفه في تحليله لقاعدة الالتزام، انطلاقا من رؤية قرآنية، فالإنسان فرد مستقل مكلف حر في تصرفه، مطالب شرعا بامتثال الأخلاق الفاضلة، بموجب عقله الذي هو مناط التكليف.

والناظر في النظام الأخلاقي للزوايا العلمية في الجزائر، يلحظ التأثر الواضح بالتربية الروحية عند الصوفية، ومن العلماء الصوفية الذين صنعت أفكارهم النظام الأخلاقي في الزوايا، الجنيد وأبي حامد الغزالي وابن عطاء الله الإسكندري والشيخ أحمد زروق وغيرهم. وهذا النظام الأخلاقي في الأساس مستمد من نصوص الوحيين، إلا أن الإجحاف قد لحق بعض جوانبه، كما تسربت إليه الخرافة والدجل، نتيجة الهوى أحيانا، والترسبات القديمة لدى بعض الشعوب حديثة العهد بالإسلام أحيانا أخرى.

والتصوف في حقيقته تربية روحية سلوكية تهدف إلى إصلاح القلب، وتزكية النفس، ومن هذا المنطلق سعت الزوايا إلى إصلاح الفرد وتقويم سلوكه.

- **النظام التشريعي:**

ويطلق عليه التشريع الإسلامي، وهو مجموعة الأحكام والقواعد القانونية الملزمة المتعلقة بتنظيم سلوك الأفراد داخل المجتمع، والمسماة بالشريعة الإسلامية.

وتهتم هذه القوانين بتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المسلم، شاملة كل مجالات حياته متصفة بالمرونة وعدم الجمود، مستندة على خمس قواعد كلية، جمعها الناظم في قوله:

ضرر يزال وعادة قد حكمت ... وكذا المشقة تجلب التيسيرا

والشك لا ترفع به متيقنًا ..... وخلوص نية إن أردت أجورا. (**مصطفى الرحيلي، 2006، ص32**)، تتفرع عن هذه الخمس مئات القواعد الفرعية، وتتجلى مرونتها مثلا، في باب المعاملات في استنادها إلى قاعدة: الأصل في الأشياء الإباحة.

وقد تفرعت مدارس التشريع الإسلامي إلى مدارس عدة، تلتقي جميعها في الطابع الجماعي التي صبغ العمل التشريعي، فالمذهب المالكي مثلا، ثمرة جهود ألوف من العلماء المجتهدين طيلة قرون في المشرق والمغرب، حتى أرسيت اختياراته الفقهية على أصول وقواعد معلومة، وهذا المذهب هو الذي شكلت معالمه واجتهاداته الفقهية النظام القانوني لسكان المغرب الإسلامي والأندلس.

وقد التزمت الزوايا في الجزائر المذهب المالكي واجتهادات علمائه مصدرا للتشريع القانوني، ولا يعني هذا إلغاء المذاهب الفقهية الأخرى وعدم قبولها، بل يتم اللجوء إليها إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، لكن المرجعية المختارة من قبل جميع الزوايا دون استثناء هي مالكية.

– النظام اللغوي:

يتكون النظام اللغوي من مجموعة من الأنظمة المتكاملة فيما بينها– الصوتي والصرفي والتركيبي والدلالي– يمكن إدراكه وتمييزه عن غيره من أنظمة اللغات الأخرى، وقد سعت الزوايا إلى الحفاظ على النظام اللغوي العربي، باعتباره صمام الأمان للهوية الثقافية الإسلامية للمجتمع الجزائري. فاللغة العربية هي لغة القرآن

الكريم، وربط المجتمع بالقرآن يوثق الصلة بينه وبينها، ويحافظ على نظامها الصوتي، من خلال أحكام الترتيل، والصرفي والتركيبي من خلال دروس النحو الصرف، والدلالي ممثلا في المباحث الدلالية عند الأصوليين.

3 السياق التاريخي للزوايا:

يمكن تفكيك المسار الزمني للزوايا إلى ثلاث مراحل، وذلك باعتبار التطورات الحاصلة في الفكر المنظم للتوجهات العامة للزوايا، حيث مرت -الزوايا- بمحطّات تاريخية بارزة، شكلت معالم الخط الزمني، المجسد لعمرها في تاريخ المغرب العربي عموما والجزائر خصوصا، وسنوجز الكلام عليها في المراحل الآتية:

3. 1 مرحلة المخاض والولادة (ق02هـ، 08م–9هـ، 15م):

تعد هذه المرحلة أكثر المراحل الثلاث غموضا، فلم يحدد الباحثون – حسب اطلاعي- بدايتها بدقة، إذ أن أقدم تأريخ توصلت إليه، ما ذكره مُحَمَّد باي بلعالم تحت عنوان، تاريخ نشأة الزوايا في منطقة توات، يقول في ذلك: «وفي بلدية أولف زاوية حينون التي يرجع تاريخ تأسيسها إلى دخول الإسلام للمنطقة وقد أسس مسجدها في القرن الثاني للهجرة سنة 164 للهجرة» (**بلعالم، 2011، ص343**).

أما المقريزي فقد أشار في كتابه المواعظ والاعتبار، إلى وجود عدة زوايا بمسجد عمرو بن العاص، منها زاوية الإمام الشافعي التي درس بها الفقه، والزاوية المجدية رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهلب الأزدي، والزاوية الصاحبية للصاحب تاج الدين مُحَمَّد بن فخر الدين، والزاوية الكمالية وغيرها (**المقريزي، 1997، ص22**).

ومما تجد الإشارة إليه أن الزوايا المقصودة هنا هي الناحية من المسجد تخصص للعلم، وهي أقرب إلى المدلول اللغوي منها إلى الزوايا التي ظهرت فيما بعد في المغرب الإسلامي، وهذا المفهوم اللغوي كان حجر الأساس لظهور الزوايا بمعناها المعاصر.

ويرجح صلاح مؤيد العقبي أن الزوايا بمفهومها الاصطلاحي ظهرت بالمغرب الإسلامي ابتداء من القرن الرابع الهجري، مستدلا بما ذكره المهدي البوعبدلي: «أن الملك الموحدي يعقوب المنصور الذي عرف بعلمه ودينه وسياسته بنى زاوية بدار الضيوف كتلك التي أسسها الملك المريني أبو عنان خارج مدينة — سلا– وقد تحدث عنها الرحالة المغربي ابن بطوطة في رحلته، وتلك التي دفن فيها الملك المذكور والده أبا الحسن بالرباط، والتي عرفت بزاوية شالة» (**مؤيد صلاح العقبي، 2002، ص302**).

وقد ذكر لفظ الزاوية كتاب عنوان الدراية أثناء ترجمة أبي الفضل قاسم بن مُحَمَّد القرشي القرطبي المتوفى سنة (662هـ/ 1264م) مما يؤكد وجودها في ذلك التاريخ ببجاية (**الغبريني، 1979، ص176**).

كما تحدث ابن مرزوق التلمساني المعاصر للدولة المرينية في الباب الثاني والأربعين عن دور أبي الحسن في إنشاء الزوايا، وقسم هذا الباب إلى أربعة فصول. تحدث في الفصل الأول عن ثواب بناء الزوايا، والثاني عن السند الشرعي لاتخاذها، والثالث للتعريف بها، والرابع عرض فيه للمشابهة القائمة بين أهل الزوايا وأهل الصفة (**التلمساني، 1981، ص409–413**).

أما الرحالة المغربي ابن بطوطة، فقد أكثر من ذكر لفظ الزوايا في كتابه الرحلة– ذكرها 172– حتى يكاد القارئ يظن أن جميع البلاد التي زارها توجد بها زوايا، حيث أشار إلى الزوايا التي أقام بها أثناء رحتله، منها: زاوية أبي عبد الله المرشدي بالإسكندرية، وزاوية الشيخ شمس الدين القلوي ببلاد البرلس ونسترو، وزاية الإبراهيمي بحماة سوريا، وزاية بمدينة عبّادان، مدينة إيرانية حاليا تسمى آبادان... (**ابن بطوطة، 1996، ص 17، 192، 196، 266**).

غير أن أغلب هذه الزوايا يغلب عليها الطابع التعبدي وتقوم بأدوار اجتماعية، كالإيواء والإطعام، أما الجانب التعليمي فيكاد ينعدم فيها.

ومن ثم يمكن القول إن زوايا هذه المرحلة، اكتفت بأداء أدوار تعبدية، تنزع نزعة صوفية، وتستمد أصالته من نصوص الوحي، وشرعيتها السياسية من التوجه العام للحكام والأمراء والملوك، وقاعدتها أو أرضيتها التي ترتكز عليها؛ العامة من الناس والأتباع والمريدين.

3. 2 مرحلة الانتشار والازدهار:(ق 9هـ، 15م– 13هـ، 19م).

تمتد هذه المرحلة من أواخر العهد المريني، إلى بداية الاستعمار الفرنسي للجزائر، فقد اهتم أمراء بني مرين بالزوايا اهتماما بالغا، تأثرا بالانتشار الواسع للفكر الصوفي في المغرب العربي، إذ ارتبطت الزاويا في هذه المرحلة بالأذكار والأوراد، أو الأولياء الصالحين والأضرحة، ومع اشتداد الحملات الإسبانية على شواطئ المغرب العربي، أضحت مراكز رباط وجهاد يتمركز فيها المجاهدون لصد غارات الغزاة.

وقد بلغت أوج قوتها وانتشارها في الفترة العثمانية، وساهمت مساهمة فعالة في دعم الدولة ومحاربة العدو المحتل أيام الحرب، كما لعبت دورا هاما في نشر تعاليم الدين والمحافظة على اللغة العربية أيام السلم، ومن هنا عد أبو القاسم سعد الله انتشارها وكثرتها، وكثرت المباني المخصصة لها من أبرز ميزات العهد العثماني، إذ تجاوز عددها في بعض المناطق عدد المدارس والمساجد، يقول في ذلك: «وتثبت الإحصاءات أن عدد الزوايا والأضرحة ونحوها كان يفوق عدد المساجد والمدارس، فقد كان بتلمسان ونواحيها أكثر من ثلاثين زاوية في آخر العهد العثماني» (**سعد الله، 2011، ص 266–267**).

وقد تنوعت وظائفها بين الجهاد والتعليم والخدمات الاجتماعية والثورة ضد السلطة القائمة أحيانا، ومزارا لطالبي البركة وقضاء الحاجات فقد كانت في العهد العثماني « قلعة جهادية، ومدرسة تعليمية، ودارا لإطعام وإيواء الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل، ومركزا في بعض الأحيان للثورة ضد السلطة العثمانية، ومزارا أو قبة للشيخ أو الولي الصالح» (**سعد الله، 2011، ص268، 269**).

فهذا التنوع شمل جميع وظائفها، فهي مركز للجهاد وتعبئة الناس أيام الحرب، وحينما يستتب الأمن ويطرد الغزاة، تتجه نحو التعليم و العبادة والخدمة الاجتماعية، أما تحولها إلى مركز للحضرة والزيارات والزردات، فهي أسوأ مرحلة تصل إليها الزاوية، وذلك بموت الشيخ العالم وانتقال السلطة فيها إلى وارث لا علاقة له بالعلم والمعرفة، فيحولها من مكان للعلم والعبادة إلى ملتقى للدراويش والحضرات وتلقي الزيارات وممارسة الدجل ونشر الجهل والخرافة، وبيع الوهم حفاظا على وجودها، واستمرارا في جني الأموال من عوام الناس، باسم الرجل الصالح أو العالم، ويرث أحفاده مكانته من بعده، ثم يذيع صيتها، ويقصدها الزوار من أماكن شتى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيرا من زوايا الحقبة العثمانية ارتبطت بالأضرحة، لأن التوجه العام للأمراء والحكام والوجهاء، يصب في هذه الوجهة، حيث يبنيها البعض، ويوصي بأن يدفن بها، أو تسمى باسمه، والباعث على انتشار زوايا الدجل والدروشة هو إرادة التميز وطلب الجاه والنفوذ، فوجود الزاوية بالنسبة للحاكم أو الوجيه مدعاة لاعتقاد العامة صلاحه واستقامته، وإشباعا للجانب الروحي فيه، كما أن دفن العالم أو الرجل الصالح في زاوية ما، يعطي أبناءه وأحفاده من بعده مكانة ووجاهة في المنطقة، فالناس يقصدونها للبركة وقضاء الحوائج، والحكام والأمراء يخطبون ودها ويغدقون عليها بالعطايا والهبات.

وهـذه الأخـيرة هـي الـتي أبقـى عليهـا الفرنسـيون حينمـا دخلـوا الجزائـر ودعمـوا وجودها، لأنها تخدر الناس باسم الدين، وتكرس التبعية للاستعمار. بينما الزوايا التي تنشـر العلـم وتحـارب الجهـل، أو الـزوايا الـتي عـادت إلى دور الجهـاد وتعبئـة الشـعب وحشده ضد المستعمر، فمآلها الهدم أو الغلق ومصادرة أوقافها وأملاكها.

وقد ازدهرت الزوايا العلمية في العهد العثماني ازدهارا كبيرا، مقارنة بالفترة السابقة والتالية لها، واعتمدت في مداخيلها على الهبات والصدقات والأوقاف الفردية، لأن الدولة قد نأت بنفسها عن دعم التعليم عموما بما فيها تعليم الزوايا« باستثناء بعض المحاولات الفردية كمحاولة الباي مُحَّد الكبير، وصالح باي لكنها محاولة فردية نابعة من الشعور الديني، وتفتقر إلى الضبط والتخطيط» **(سعد الله، 2011، ص314)**.

فالتعليم في الزاوية تعليم مجاني، يمكّن منه كل من أراد ذلك دون تفريق أو تمييز بين صغير أو كبير أو غني أو فقير، ويشرف عليه شيخ الزاوية بنفسه، ومعه المساعدون من طلبته أو بعض من يستعين بهم من العلماء والفقهاء والمدرسين، وتعرف الزوايا العلمية نشاطا متميزا وانضباطا صارما، بيد أن نشاطها التعليمي مقصور على العلوم الدينية واللغوية، كالقرآن الكريم وقراءاته وتفسيره، والحديث النبوي الشريف وعلومه، والتوحيد والفقه وأصوله، والنحو والبلاغة والأدب، ومحتوى منهاجها التربوي قار لا يطرأ عليه أي تغيير أو تعديل، يعتمد على متون مختارة في كل فن، مقرونة بالشروح والحواشي الموضوعة عليها.

3. 3 مرحلة التراجع والتقهقر (13هـ، 19م–14هـ،20م):

تعد المرحلة الاستعمارية للجزائر نكسة على جميع الأصعدة، وفصل أسود في تاريخ الاستعمار الفرنسي، فقد خلف دمارا هائلا في جميع نواحي الحياة، ، ومن أبرز ما عطلته الآلة الاستعمارية – في الجزائر– الجانب الثقافي والعلمي، إذ أطلق كثير من

الفرنسيين تصريحات عن الوضع الذي آل إليه التعليم في الجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية، تبين مدى الضرر الناجم عن السياسة الاستدمارية، الهادفة إلى سلخ الجزائري عن كل مقومات هويته، يقول مارسيل ايمريت (Marcel Emerit): «كان العربي قبل 1830 يعرف القراءة والكتابة، ولكنه أصبح يتخبط في ظلمات الجهل عندما مضى نصف قرن من الاحتلال» (**مصطفى الأشرف، 2007، ص414**)، وهذا ما عبر عنه دي طوفيل بقوله:« إننا جئنا لإضاءة الشموع فأطفأنا الموجود منها» (**يحي بوعزيز، 2005، ص110**).

وقد انعكست آثار السياسة الاستعمارية على الزوايا سلبا، وخصوصا الزوايا التي كانت سببا في الحراك الثوري بشقيه؛ الثقافي والعسكري. فالمقاومة الشرسة والمتواصلة التي لقيتها فرنسا في كل المناطق الجديدة التي تحاول السيطرة عليها —كمنطقة القبائل والغرب والجنوب ومنطقة الأوراس – ألفتت نظرها صوب المحرك الرئيس للمقاومة، فقد كان أثر الزوايا في المقاومة باديا، مما جعل فرنسا تصوب مدفعيتها العسكرية والقانونية والإغرائية نحوها.

ويمكن إبراز دور الزوايا في هذه المرحلة كالآتي:

3. 3. 1 المقاومة العسكرية:

تمتد هذه المرحلة من الدخول الفرنسي إلى الجزائر، إلى السيطرة التامة على كافة التراب الوطني، حيث وقفت الزوايا في وجه الاستعمار، ودعمت المقاومة، وساهمت في إذكاء روح الجهاد في نفوس الشعب، بداية بثورة الأمير عبد القادر(1832-1847)، مرورا بثورة المقراني والحداد، وثورة الأوراس وبقية ثورات الجنوب، وصولا إلى ثورة بوعمامة (1881-1904)، فأغلب هذه الثورات قام بها رجال الدين المنتسبين للزوايا، يقول أبو القاسم سعد الله عن زوايا هذه المرحلة:«كانت الزوايا ما تزال في قوتها، وما يزال في استطاعة أشرافها ومرابطيها تكبيد العدو خسائر فادحة، وجمع جموع الأتباع بالآلاف[...] فرغم سمعة المقراني ومكانته، فإنه لم يستطع أن يجند الناس للثورة، إلا بالاعتماد على الشيخ الحداد، فرجل الدين هو المحرك للانتفاضات وليس رجال الدنيا، وإذا رغب أحد هؤلاء في الثورة فإنه كان عليه أن يبحث عمن يجند له الجمهور من رجال الدين» (**سعد الله، 2007، ص55**).

فقد تحول الشيوخ وطلبتهم إلى مرابطين ومجاهدين، وأعلنت حالة الطوارئ في الزوايا، وعطل الجانب التعليمي فيها، وأضحى شغلها الشاغل طرد المحتل، مما جعل فرنسا – بمجرد سيطرتها على الثورة- تسلط غضبها وانتقامها على الزوايا، فتقوم بهدمها أو غلقها أو مصادرة أوقافها.

وهذه الإجراءات الانتقامية جعلت الزوايا العلمية تراجع طريقة تعاملها مع العدو، حيث غيرت ميدان المعركة بعد فشلها في الصراع العسكري، واتجهت نحو المقاومة الفكرية والثقافية.

3. 3. 2 المقاومة الثقافية:

حاولت فرنسا منذ وطئت قدمها تراب الجزائر طمس الهوية الوطنية، والإعفاء عن الانتماء الحضاري للجزائريين، تمهيدا لاعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية، بيد أنها اصطدمت بالحواجز الثقافية العصية عن الانصياع للهيمنة الاستعمارية، فالدين واللغة والوطن والعادات والتقاليد، ومن وراء هذا مؤسسات وجمعيات تغذي المكون الإيديولوجي والروافد الحضارية المجسدة لموضوع الهوية.

وقد كان الاستعمار مدركا لخطورة التباين الثقافي في المستعمرة الجديدة، فأعد العدة لفرض الواقع الجديد، وإحلال مكونه الإيديولوجي والثقافي على حساب الأهالي، وأقصر طريق إلى هذا؛ السيطرة على التعليم وإقصاء المؤسسات المحلية، وفرض نظام تعليمي فرنسي بالترغيب والترهيب.

ومن ثم سعت فرنسا إلى السيطرة على التعليم وتوجيهيه، لضمان أمنها الفكري في الجزائر، وإزاحة المكون الثقافي الجزائري من جميع المجالات الرسمية، ولتحقيق هدفها هذا سعت إلى القضاء على الزوايا والكتاتيب، وتأسيس مدارس خاضعة للرقابة الفرنسية، فقد جاء في تقرير عامل عمالة وهران إلى الحاكم العام: «للوصول إلى رفع عدد تلاميذ المدارس العربية الفرنسية هناك إجراء واحد، هو القضاء كليا على الكتاتيب الموجودة في المدن، حيث يكون بالإمكان تأسيس مدارس عربية وفرنسية» **(عبد القادر حلوش، 2004، ص56)**.

والغرض من نشر هذا التعليم بين عدد أكبر من التلاميذ يتجلى في الآتي:

– وأد التعليم العربي الإسلامي الخارج عن السيطرة الفرنسية، أو محاصرته في المدن والقرى قدر الاستطاعة، وذلك بوضعه تحت الرقابة.

– إتمام فرنسا لسياستها التفريقية التي تهدف إلى إحداث شرخ في جسم المجتمع الجزائري؛ وذلك بالاهتمام بتعليم سكان منطقة القبائل، وإنشاء عدد كبير من المدارس

بالمنطقة دون غيرها، ومنها مدارس الآباء البيض، وهي فرنسية الشكل والمضمون، الحديث فيها لا يتم إلا باللغة الفرنسية أو البربرية.

– تحقيق الأمن واستكمال العملية التوسعية الاستعمارية في بقية التراب الجزائري، من خلال القضاء على المقاومة المسلحة، والمقاومة الفكرية المتمثلة في التعليم السائد في البلاد، سعيا من السلطة الاستعمارية إيجاد البديل للتعليم العربي الإسلامي الذي تحاربه، لكنها حطمت التعليم القائم وتركت الجهل يفترس الجزائريين؛ ليسهل لها بعد ذلك إخضاعهم، يقول أوجين فور ميسترو في سنة 1880: «لقد فرطنا في تعليم الأهالي حتى نزل إلى مستوى هو أدنى بكثير مما كان عليه قبل الاحتلال» (**مصطفى الأشرف، 2007، 414**).

لم تكتف الإدارة الفرنسية بمحاربة الزوايا والكتاتيب، بل عملت على إزاحة اللغة العربية من جميع المجالات الرسمية، في الوثائق أو المستندات الإدارية، فجميع الوثائق مرفوضة إن لم تكن بالفرنسية، «والغرض من ذلك خلق بيئة فرنسية أمام الجزائريين وذلك بتغيير أسماء المناطق وجعلها فرنسية، وأسماء الشوارع وجميع المرافق كانت بالفرنسية، حتى يكون لفرنسة التعليم سند قوي في فرنسة الإدارة والمحيط الاجتماعي» (**عبد الباسط دردور، 2002، ص 142**).

ثم عززت عملها هذا بترسانة من القوانين الرادعة لكل من يحاول نشر أو استعمال لغة غير اللغة الفرنسية، جاء في تقرير رسمي فرنسي صدر سنة 1849: «لا ننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة، فإن قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة، وبهذه اللغة يجب أن تصدر – بأعظم ما يمكن بسرعة– جميع البلاغات الرسمية، بها تكتب جميع العقود، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا، فإن أهم الأمور التي يجب أن يعتنى بها قبل كل شيء هو السعي

وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة على عامة الجزائريين، الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا وتمثيلهم بنا، وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين...» (**رابح تركي، 1981، ص108**).

وقد كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية لجميع الجزائريين في الإدارة والتعليم، دون فرق بين منطقة وأخرى، لكن الاستعمار عمل على تفريق الصفوف ليصفو له ولثقافته الجو، وهذا ما قرره المقدم الإداري لدائرة تيزي وزو في رسالة إلى الحاكم العام سنة 1873 يقول فيها: « لتعليم هذا الشعب القبائلي: يجب إلغاء الوسيط العربي...لأنه كان حتى الآن ضارا أكثر منه نافعا، وبكلمة واحدة أن نكلمه بلغته، أو نعلمه لغتنا... وأقصد اللغة الفرنسية لأنني أعتبرها سهلة التطبيق، أما فيما يخص الزوايا فيجب إسقاطها نهائيا وبجميع الوسائل من منطقة القبائل، لاستبدالها بمدارس بلدية فرنسية» (**عبد الباسط دردور، 2002، ص 286**).

فالجزائري بموجب ما سبق مخير بين العجمة أو الأمية، مما يبعده تدريجيا عن انتمائه الحضاري، وليكون الطريق أمامه معبدا، ليدخل حظيرة المسخ الاستعماري.

ومن هنا تبنت بعض الزوايا المقاومة الثقافية، وجعلت القرآن الكريم وعلوم اللغة والعلوم الدينية محتوى برنامجها التعليمي، فقد« تجلى دورها في الحركة الثقافية، خاصة الجانب التعليمي من خلال نشاطاتها المختلفة كتلقين العلوم الدينية واللغوية والأدبية وتوجيه الطلبة نحو المدارس المجاورة مثل القرويين(فاس) الزيتونة(تونس) وهناك من يتعداها إلى الأزهر الشريف(مصر) ويؤكد مقدم التحفة الرضية أن الزوايا تحتل الصدارة بين مختلف المراكز الثقافية في تثقيف المعوزين والفقراء والمتعطشين للعلم» (**كمال خليل، 2008/2007، ص22**).

كما كانت سياسة التعليم الفرنسية سياسة تفريقية تهدف إلى إحداث شرخ في جسم المجتمع الجزائري، عن طريق الاهتمام بتعليم سكان منطقة القبائل وإنشاء عدد كبير من المدارس بالمنطقة دون غيرها، ومنها مداس الآباء البيض، وهي فرنسة الشكل والمضمون، الحديث فيها لا يتم إلا بالفرنسية أو البربرية. بيد أن الطريق أمام فرنسا لم يكن معبدا في منطقة القبائل أو غيرها، مما جعل الدوائر الاستعمارية تعيد النظر في سياستها، وبعد أن تأكدت أن القرآن الكريم هو أساس الهوية الجزائرية، وبقاؤه بين الأهالي خطر على سياستها، وهو يستمد وجوده من الكم الكبير للمساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب، فعمدت أولا إلى مصادرة الأوقاف التي تعد مصدر دخل لهذه المؤسسات التعليمية، ولكن الشعب الجزائري استمر يدعمها عن طريق الزيارات السرية، فاتجهت أنظار المستعمر نحو هذه المؤسسات، فصادرت كمّا كبيرا منها وهدمت بعضها، قصد القضاء على الدين الإسلامي، والتمكن من الأهالي (**كمال خليل، 2008/2007، ص40-42**).

وفي ظل هذا الوضع الجديد انحصرت نشاطات الزوايا العلمية في تحفيظ القرآن الكريم وعلومه، والفقه وأصوله، واللغة العربية وعلومها، والتاريخ الإسلامي. وسنبين ذلك من خلال الآتي:

– القرآن الكريم وعلومه:

اهتمت الزوايا العلمية بالقرآن الكريم وعلومه عناية، تجلت في تحفيظه للصغار والكبار على السواء، فأول ما يبدأ به الطالب الجديد– إن لم يكن حافظا للقرآن– حفظ كتاب الله على يدي شيخ حافظ، يتابعه في الحفظ والضبط، والرسم القرآني.

ومن بين الزوايا العلمية التي واصلت كفاحها الثقافي بعد الاحتلال، واشتهرت بالقراءات القرآنية وتفسير كتاب الله، زاوية ابن إدريس، وزاوية عبد الرحمان اليلولي،

فقد كانت هذه الأخيرة منارة من منارات العلم اشتهرت بالقرآن وقراءاته، ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد وجود عدد كبير من الزوايا مختص في القراءات القرآنية، فقد ذكر أبو القاسم سعد الله أن هانوتو ولوتورنو وجدا –في منطقة القبائل وحدها– تسعة عشر زاوية متخصصة في الدراسات القرآنية، ومنها: زاوية سيدي مُحَمَّد بن عبد المالك بتفريت، وزاوية عروس وزاوية عدني في بني ايراثن، وزاوية الشرفة في بني بوخالفة... وغيرها (**سعد الله، 2011، ص176**).

فالقرآن الكريم هو عصب التعليم في الزوايا؛ إذ لا تكاد تجد زاوية علمية دون تعليم قرآني، فهو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، ويمثل قطب الرحى في تشكيل الهوية الإسلامية.

– الفقه الإسلامي:

يعد الفقه الإسلامي بمختلف مدارسه وتوجهاته مصدرا ثرا للقانون المنظم للعلاقات الفردية والاجتماعية الدينية والدنيوية، في المجتمع الإسلامي، وقد اعتنى به الفقهاء المسلمون ووضعوا له الأصول وقعّدوا القواعد التي تضبط الاجتهاد وتضمن سلامة الأحكام، مما أضفى على المجتمع المسلم أينما كان طابعا إسلاميا خاصا، لفت أنظار المستعمر الفرنسي حينما دخل الجزائر، وفي هذا يقول ليونار بارليت L. Barlite أثناء حديثه عن بلدة دراع الميزان– وقد عمل فيها طويلا– قائلا: «إن الإسلام هنا منطبع ومنقوش العمق، مما يجعل إزالته ليس بالأمر الهين في المدى القريب» (**سعد الله، 2011، ص210**).

وفي سبيل محاربة الإسلام وتوجيه بوصلة التشريع الإسلامي في الجزائر صوب القانون الفرنسي، أنشأت فرنسا المدارس الشرعية لتخريج مدرسين وقضاة وأئمة خاضعين للإدارة الفرنسية، يسهل توجيههم والتحكم فيهم، كما تستغلهم كأداة

لتضييق الخناق على التعليم الموجود في المؤسسات التعليمية القائمة، وقد كانت الزوايا بين مراكز العلم المستهدفة؛ إذ ضيقت فرنسا عليها ماديا ومعنويا، لتفسح المجال أمام خريجي معاهدها، يقول توفيق المدني: «فإن كل الدلائل تدل على أن الفرنسيين قد خططوا لعرقلة التعليم في الزوايا ومنافسته ووضع الشروط المضادة له وسحب التلاميذ منه وعدم التوظيف من خريجي الزوايا» (**توفيق المدني، 1963، ص351**).

وقد واجهت بعض الزوايا هذا المسخ الاستعماري بمواصلة تدريس الفقه الإسلامي على مذهب الإمام مالك، وتنوعت الكتب التي تدرسها بين منظومات ميسرة مخصصة للمبتدئين، كابن عاشر والعبقري، وأخرى موجهة للمتوسطين، كرسالة ابن أبي زيد القيرواني، وأسهل المسالك وأقرب المسالك، وأخيرا المتون المطولة الموجهة لكبار الطلبة، كمختصر خليل.

ومن بين الزوايا التي واصلت تعليمها للفقه والقرآن في الحقبة الاستعمارية، الزاوية السحنونية، وزاوية آيت الحاج، وزاوية آيت عمر في تمازيرت ببني إيراثن، وزاوية الشرفة وزاوية القواضي، وزاوية طولقة وزاوية الهامل ببوسعادة (**سعد الله، 2011، ص205، 217**)، وتعد هذه الأخيرة من أشهر الزوايا العلمية وأكبرها في المنطقة، فقد كانت وجهة للطلبة من أماكن شتى، لتنوع وخصوبة تعليمها، فهو«يقلد برنامج الزيتونة وأمثاله، فهناك مراحل ومستويات من الابتدائي إلى الدروس العالية» (**أبو القاسم سعد الله، 2011، ص222**). وكان للدراسات الفقهية نصيبا وافرا من محتوى برنامجها التعليمي، فمرتبها تلي مرتبة القرآن الكريم وعلومه، لارتباط الأحكام الفقهية بالسلوك الفردي والجماعي، فهي غاية المجتهد والفقيه، ومن ثم اعتنت الزوايا بتدريس الفقه للطلبة، وتخصيص دروس عامة في المساجد التابعة لها؛ قصد تعريف عامة الناس أحكام الدين المنظمة للعلاقات العامة والخاصة.

– اللغة العربية وعلومها:

اللغة العربية هي رمز الهوية الإسلامية، فالمسلم أيا كان جنسه يعز هذه اللغة ويتعلمها ويعدها لغة القرآن الكريم، وقد أدركت فرنسا منذ البداية أهمية اللغة العربية في بناء الشخصية الجزائرية المسلمة فوضعت أمامها العراقيل، وطوقتها بترسانة من القوانين، بعد أن حاصرت المؤسسات التعليمية الموجودة، وأغلقت الكثير منها، سعيا منها إلى فرنسة المجتمع، وهذا بعد أن كانت اللغة الفصحى«تدرس في كافة جهات القطر، بل كانت في المناطق التي لا تستعمل فيها العربية الدارجة ويتخاطب سكانها بالأمازيغية (البربرية)، إن الفضل في إعداد هذه الدروس يرجع إلى الأفراد والجمعيات والزوايا المتواجدة في الأرياف والكتاتيب الملحقة بالمساجد في القرى والمداشر، أما الدولة الفرنسية فقلما عملت لتدريس اللغة العربية» (**مصطفى الأشرف، 2007، ص416، 417**).

بل سعت إلى عرقلتها حتى يسهل عليها تدجين الشعب الجزائري. مما دفع الزوايا العلمية التي لم تطلها آلة الهدم الاستعماري إلى تعليم اللغة العربية ونشرها بين الطلبة، وتجلى نشاطها التعليمي للغة العربية في تعليم القراءة والكتابة. وبهذا ساهمت في محو الأمية. وتعليم النحو والصرف. وتعليم الأدب العربي.

– تعليم القراءة والكتابة:

للقراءة والكتابة أهمية كبيرة في تلقي العلوم ونقلها، إذ يعتبران همزة الوصل بين الأجيال السابقة واللاحقة، لذا اتجه اهتمام الزوايا بداية إلى تعليم القراءة والكتابة للناشئة، اعتمادا على طريقة الانتقال من الجزء إلى الكل؛ حيث يبدأ المعلم بكتابة

الحروف الهجائية للطالب الصغير في لوح أو سبورة، ويحفظه إياها انطلاقا من خلو الحروف من النقاط أو اقترانها بها، وموضع وجود التنقيط.

وعلى هذا يتم تقسيم الحروف الهجائية إلى ثلاث مجموعات (**مختارية تراري، 2001، ص64- 66**):

- حروف خالية من النقاط: أ، ح، د، ر، س، ص، ط، ك، ل، م، هـ، ع، و.
- حروف منقوطة من أعلاها: ت، ث، خ، ذ، ز، ش، ض، ظ، غ، ف، ق، ن.
- حروف منقوطة من الأسفل:ب، ج، ي.

وبعدها ينتقل إلى نطق الحروف مع حركاتها الطويلة والقصيرة، ثم يتدرج إلى نطق الكلمة والكلمتين فالجملة. وفي الوقت نفسه يكتب المعلم للطالب قصار الصور في الجهة الخلفية للوح، ويقرأها معه منفردا أو مع جماعة، حتى يحفظها، ويستمر على هذه الشاكلة حتى يتقن الطالب الكتابة والقراءة، فيغير المعلم طريقة التعليم، وينتقل إلى ما يصطلح عليه (الفتيا) ومعناه أن يعقد المعلم حلقة لجميع الطلبة الذين يحسنون القراءة والكتابة، ويبدأ عن يمينه قائلا: نعم، فيبدأ الطالب بالمكان المتوقف عنده في الحفظ، فيُسَمِّعه المعلم مقطعا من القرآن، فيقوم الطالب بترديده، ثم يكتبه على اللوح، ويبقى مرددا إياه في نفسه، أما المعلم فينتقل إلى الذي يليه، حتى يرجع إلى الأول، فيردد له ما كتبه؛ ليصوبه له إن أخطا في كتابته، ويضيف له مقطعا جديدا، وهكذا حتى نهاية كتابة الألواح، ثم يمرون عليه الواحد تلو الآخر، يصحح لهم الأخطاء الإملائية، ويقرأ معهم ألواحهم، ثم يتفرغ بعدها كل واحد منهم لحفظ لوحه.

على الرغم من بساطة الوسائل والطرائق التعليمية المتبعة في تعليم القراءة والكتابة في الزوايا، إلا أنها استطاعت أن تنتشل أعداد كبيرة من الطلبة من براثن التجهيل والتغريب، وأن تقف في وجه وأد لغة القرآن من الجزائر، خاصة أنها لا تفرق في

تعليمها بين الصغير والكبير، فقد تحملت –على قلة الموارد– دور رياض الأطفال، والكتاتيب، ومراكز محو الأمية، ودور المدارس، والجامعات.

– تعليم النحو والصرف:

كانت الإدارة الفرنسية تحارب تعليم اللغة العربية، وتضييق الخناق على معلميها، فلا تأذن لمعلم اللغة أن يعلمها إلا برخصة، بيد أننا نجد بعض الزوايا العلمية لم توقف نشاطها التعليمي أثناء الحقبة الاستعمارية بما فيها تعليم اللغة العربية، وكانت الدراسات النحوية والصرفية هي المهيمنة على حصة اللغة.

فالطالب في زاوية الهامل – مثلا – يتدرج في قراءة المتون اللغوية التالية: متن الآجرومية، لامية الأفعال لابن مالك، ملحة الإعراب للحريري، قطر الندى وبل الصدى لابن هشام الأنصاري، ألفية ابن مالك في النحو والصرف، وقد أدخلت هذه الزاوية بعض التغييرات على التعليم المتعارف عليه في الزوايا، تأثرا بالنظام التعليمي الموجود في الزيتونة والقيروان، حيث قسمت مراحل الدراسة إلى أربع مستويات تعليمية **(درام الشيخ، 2013/2012، ص91–95)**:

– **المستوى الأول (الابتدائي)**: ويدرس الطالب فيه بعض المتون المختصرة في اللغة، كمتن الآجرومية، ومرح الأرواح لأحمد بن علي بن مسعود، الجوهر المكنون للأخضري.

– **المستوى الثاني (المتوسط)**: ينصب اهتمام الطالب في هذا المستوى على شرح متن الآجرومية بشرح المكودي، ثم يحفظ لامية الأفعال لابن مالك.

– **المستوى الثالث(الثانوي)**: يحفظ الطالب ملحة الإعراب للحريري، وقطر الندى وبل الصدى لابن هشام الأنصاري والألفية لابن مالك.

– **المستوى الرابع (الجامعي)**: يتم في هذا المستوى التوسع في شرح الألفية من خلال شرحي الأشموني والمكودي وحاشية الصبان.

إن هذا التقسيم المتبع في زاوية الهامل، يتجلى فيه الجانب التنظيمي المغيب في أكثر الزوايا، فالمستويات التعليمية في أغلب الزوايا تنحصر في مستويين؛ طلبة القرآن، وطلبة الفقه، وطالب الفقه يختار من المواد العلمية المقررة ما يتماشى مع ميوله ورغباته، فقد ينصب اهتمامه على الفقه دون مراعاة لعلم الأصول أو اللغة، بخلاف زاوية الهامل التي ترتب لكل مستوى مجموعة من العلوم التي يجب على الطالب قراءتها.

والملاحظ على التغيير الحاصل في زاوية الهامل أنه تغيير ارتبط بجانب من الجوانب البيداغوجية، الواجب توفرها العملية التعليمية، وقد كانت موجودة في المدارس الجزائرية في العهد العثماني، إلا أن الزوايا تغفلها ولا توليها عناية كبيرة، لذا فإن الإصلاح الذي قامت زاوية الهامل ليس جذريا يتصل بالمشاكل الحقيقية التي يعانيها التعليم في الزاوية، فقد بقيت كثير من عناصر المنهاج تتخبط في المشاكل التي تثقل كاهلها، كما أن المحتوى التعليمي والطرائق والتقويم تتشابه في جميع الزوايا.

خاتمة:

يمكن تلخيص نتائج هذه الدراسة في النقاط الآتية:

1- لا تكاد تجد زاوية علمية أو غير علمية تنفك عن الدور الاجتماعي المتمثل في الإيواء والإطعام، وإيواء الغرباء والفقراء، فهذه الوظيفة تبقى – في الغالب– ملازمة للزاوية وإن ابتعدت عن مسارها التعليمي نحو الخرافة والدجل، فما زالت كثير من الزوايا التي كانت فيما مضى علمية، تحتفظ بدار الضيافة لإيواء الغرباء والمسافرين وإطعامهم.

2- كانت الزوايا – منذ الحملات الأوربية على المغرب العربي– ولا تزال تستغل من قبل الساسة، وتارة يَستغل القائمون عليها تقرب الساسة منهم لكسب حظوظ مادية، لأن الزاوية قديما كانت معقلا للجهاد، لها أتباعها ومرابطوها الذين يحملون السف ويقاتلون العدو، ويظنها كثير من ساسة عصرنا مكانا خصبا لكسب الأنصار، وعند البعض الآخر هي موطن للبركة والدعاء.

3- أسمى وظيفة تقوم بها الزوايا هي الوظيفة التعليمية، بيد أنها تقتصر على التعليم الديني دون غيره، فمنهاجها التعليمي يقوم على العلوم الشرعية التي تسمى علم الغايات، والعلوم التابعة لها وتسمى بعلوم الآلة أو العلوم الوسائل.

4- تساهم كثير من الزوايا العلمية الموجودة في الجزائر – خصوصا في الجنوب– في تقوية العلاقات بين أفراد المجتمع، انطلاقا من الوحي الإلهي. فهي تسعى للحفاظ على نواة المجتمع، المتمثلة في الأسرة، من خلال نشر الوعي بالحقوق والواجبات والضوابط الشرعية، مع الاهتمام بتقوية العلاقات الرابطة بين أفرادها،كطاعة الوالدين وبرهما والإحسان إليهما، والرأفة بالأبناء وحسن تربيتهم، والعشرة الحسنة بين الزوجين، وزيارة الأرحام.

5- مرت الزوايا في تاريخها بثلاث محطات تاريخية بارزة، بداية بمرحلة المخاض والولادة من [ق(2-9هـ) (8-15م)]، مرورا بمرحلة الانتشار والازدهار [ق(9-13هـ)(15-19م)]، وصولا إلى مرحلة التراجع والتقهقر، في الفترة الاستعمارية، [ق(13-14هـ)(19-20م)]. أما مرحلة ما بعد الاستعمار -فترة الاستقلال- فتحتاج إلى دراسة مستقلة تكشف عن سيرورة الزوايا من جوانب عدة، منها جانبي الازدهار أو الانحسار، وإقبال الطلبة أو عزوفهم.

أما الزوايا العلمية بعد الاستقلال فإنها لا زالت تواصل وظيفتها العلمية والثقافية، وتحافظ على القرآن الكريم والمرجعية الوطنية للجزائر، ويقصدها الطلبة من أماكن بعيدة —خاصة في منطقة توات — ويتفانى شيوخها في تعليم العلوم الشرعية واللغوية، ولا زالت مناهجها التعليمية تمثل استمرارا للمناهج التعليمية في الزوايا العلمية في الجزائر إبان الفترة العثمانية وما بعدها، فقد تُغيِّر بعض مفردات المحتوى التعليمي، أو تُعدِّل بعض الطرائق، بيد أن عناصر المنهاج التعليمي —الأهداف، المحتوى، الطرائق، التقويم- في مجملها تتشابه مع بعضها، ومع ما كان سائدا فيما مضى، لذا تم الاكتفاء بتتبع المسار التاريخي للزوايا حتى المرحلة الاستعمارية.

قائمة المراجع:

– الكتب:

1. ابن بطوطة مُحَمَّد بن عبد الله اللواتي الطنجي، (1996)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.
2. ابن فارس، (1979)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر.
3. ابن مرزوق الخطيب، (1981)، المسند الصحيح في مآثر مولانا أب الحسن ، تح: ماري بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
4. ابن منظور، (1993)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 03.
5. أبو العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، (1979)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 02.
6. أبو القاسم سعد الله، (2007)، الحركة الوطنية، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر.
7. أبو القاسم سعد الله، (2011)، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر.
8. أحمد زروق، (2005)، قواعد التصوف، تح: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 02.
9. تمام حسان، (1994)، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.
10. توفيق المدني، (1963)، كتاب الجزائر، دار الكتاب، الجزائر، ط02.
11. رابح تركي،(1981)، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، 1931–1956، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 02.
12. السيد سابق، (1983)، عناصر القوة في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
13. عباس مُحَمَّد العقاد، (د ت)، التفكير فريضة إسلامية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
14. عبد العزيز بن عثمان التويجري، (2007)، الاجتهاد والتحديات في الإسلام، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو.
15. عبد الكريم بكار، (2005)، نحو فهم أعمق للعالم الإسلامي، دار القلم، دمشق، ط02.
16. مايكل هاملتون مورجان، (د ت)، تاريخ ضائع التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكريه وفنانيه، نهضة مصر للنشر والتوزيع، مصر.
17. مبارك بن مُحَمَّد الهلالي الميلي، (د ت)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر.
18. مُحَمَّد ابن مرزوق التلمساني، (د ت)، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

19. مُحَمَّد باي بلعالم، (2011)، الرحلة العلية إلى منطقة توات، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر.
20. مُحَمَّد عبد الله دراز، (1998)، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط10.
21. مُحَمَّد مصطفى الزحيلي، (2006)، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، دار الفكر، دمشق، ط01.
22. مصطفى الأشرف، (2007)، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر.
23. المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، (1997)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 01.
24. مؤيد صلاح العقبي، (2002)، الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر، دار البراق، لبنان بيروت.
25. يحي بوعزيز، (2005)، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 2005.

– والمقالات والرسائل الجامعية:

26. درام الشيخ، (2012– 2013)، النظم التعليمية في الزوايا: زاوية الهامل أنموذجا، مذكرة ماجيستر، جامعة سطيف 02، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السنة الجامعية.
27. طيب جاب الله، (2013)، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر، العدد14، أكتوبر، السنة 08.
28. عبد الباسط دردور، (2002)، أقطار المغرب العربي وتحديات الغزو الثقافي الغربي، دراسة وصفية تحليلية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا،ط01.
29. عبد القادر حلوش، (2004)، الجمهورية الثالثة والتعليم الفرنسي في الجزائر، مجلة الشهاب الجديد، الجزائر، المجلد03، العدد 03، السنة 03.
30. كمال خليل، (2008/2007)، المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر: التأسيس والتطور(1850– 1951) مذكرة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية.
31. مختارية تراري، (ديسمبر2001)، التعليم بالكتاتيب القرآنية في الجزائر، مجلة إنسانيات، الجزائر، المجلد05، العدد: 14– 15.
32. يوسف زناتي، (2010/2009)، الهوية الثقافية في الموسيقى الجزائرية فرقة نجوم الصف سبدو تلمسان أنموذجا، رسالة ماجيستير، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

– مواقع الأنترنيت:

33. وليد أحمد السيد: أطروحة التراث وفلسفة نقد العقل العربي في فكر الجابري، fac.ksu.edu.sa/snqahtani/publication/68525، (2019/12/15).